ظهور المدينة ونشوء الدولة في بلاد الرافدين

الملخص

ما المظاهر البيئية والطبيعية التي أهلت بلاد الرافدين لتكون مهد الحضارات، وأول مكان تولى فيه المدن ونشأ الدولة؟ تطلّب الإجابة على هذا السؤال تقديم عرض سريع لجغرافية المنطقة وتضاريسها قبل الاتفاق للحديث عن المظاهر النفسية والاقتصادية والبشرية لنوعية المدن وتعجي النشأة في مراحلها المتالية. بدأ أول خطوة في هذا الإجابة بعد التقدم من العصر الجليدي إلى عصر العصور الحجرية ثم من تطور صناعة المحراث وغيره من الأدوات الزراعية، وهو ما ساعد في تطور وقنوات الري وحرث مساحات أكبر من الأرض لزراعةها، وكذلك اختراع العجلة التي سهلت نقل فائض المحصول من البيض إلى المدينة. بعد ذلك تتبع مراحل التطور الحضري التي مهدت لقيام المدينة، والمشكلة في التفجير الديوغرافي الناجح عن زيادة المحاصيل، والقدرة على إنتاج الفائض، وما يترتب على ذلك من كثافة سكانية وعقد في التنظيم الاجتماعي وتشتت العلاقات الاجتماعية الذي يقوم إلى نشوء الطبقيات. هذا ما يحمل قيام سلطة مركزية قادرة على ضبط الصراعات وحماية المصايف الطبقيات. وبعد السومريون أول بناء للحضارة، وأول من أسس المدن في بلاد الرافدين، لذا كان لا بد من الطرق لنشوء المدن السوقية ثم مجيء الأكاديميين بعد ذلك. ونستطيع البحث باستعراض أهم نظريات تفسير نشوء المدينة والدولة، وهما النظرية الهيديوغرافية التي قال بها كارل تافغيل، والنظرية الديوغرافية التي قال بها روبرت أمز.
بلاد الرافدين: البيئة والجغرافيا

تضم بلاد الرافدين بيئات ومناطق جغرافية متباينة في الطبيعة والتضاريس والمناخ. ففي الشمال والشمال الشرقي وابتداء من الموصل وكركوك وأربيل، حيث تبدأ المناطق التركمانية والكردية، تأخذ المنطقتة في الارتفاع، وتزداد تضاريسها ووفرة المطر حتى تتحول في أقصى الشمال إلى جبال عالية الارتفاع، تغطي قممها الثلج، ويتراوح ارتفاعها من 8000 إلى 11000 قدم، وتدوم مع جبال زاغروس شرقاً وطوروس شمالاً. ويتميز شمال العراق عموماً بجمال الطبيعة وبرودة المناخ ووفرة الأمطار التي تتراوح من 14 إلى 15 بوصة في السنة، وهو ما يجعل منه منطقة غنية بمراحيقها الخصبة وزراعتها البعلبية. وإلى الجنوب من تلك المنطقة بين نهر دجلة والفرات تقع الدلتا ذات التربة الخصبة، والتي تبلغ مساحتها 525 كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب، و275 كيلومتراً من الشرق إلى الغرب. يعبر نهر اليراق من تركيا إلى الأراضي السورية حيث يلتقي في ضفتي اليسر مع رافدات الخابور والبليخ قبل دخوله العراق. ويبلغ إجمالي طول نهر اليراق 2736 كيلومتراً، ونهر دجلة 1900 كيلومتراً، وهو أضيق مجرى من النهرين لكنه أغزر ماء وأسرع جرياناً. وتعني "الدجلة" في اللغة الأكادية "المنطق السريع". ويستخدم الأهالي للإبحار في دجلة والفرات قوارب وسفن صغيرة محلية، مثل الكوك والفقهة والبلد، ومع ذلك يبقى البحار في الرافدين ضخماً نظراً لضيقهما وشدة انحدارهما في الأجزاء الشمالية وضخامتها وكثرة ما فيهما من الجزر، ومن الوحل والرمال في الأجزاء الجنوبية، فضلاً عن الفيضانات العنيفة والمفاجئة، وهما بذلك يختلفان عن نهر النيل. كما يختلفان عن نهر النيل في أن هذا يفيض قبل موسم السياحة، على حين يفيض دجلة في شهر أبريل والفرات في مايو، أي في أواخر فصل الربيع وبعد موسم تخر الجفوس. وتحدث الفيضانات بصورة مفاجئة وعنيفة وربما وصل ارتفاع مياههما في أثناء ذلك إلى عدة أمتار، لذا تشيد السدود والسدود والبحار والمصانع على ضفافهما لحجز مياه الفيضانات والاستفادة بها لوقت الحاجة في موسم الربيع، وتقام القرى والمدن بعيداً عن مجري النهرين في المناطق المرتفعة على جانبيهما.
وتشكل الدلتا ثلاث مساحة العراق تقريباً، وتضم حوالي ثلاثة أرباع سكانه ومناطقه الزراعية، وهي منطقة سهلية شاسعة ومنخفضة، لا سيما في المنطقة الواقعة جنوبي بغداد، لا يزيد ارتفاعها في أعلى نقطة لها عن 100م عن مستوى سطح البحر، ويتراوح معدل ارتفاعها بين 2 إلى 1.5متر لكل 100كم، إذ لا يزيد الارتفاع من شط العرب إلى بغداد على 10أمتار. وتشمل روافد دجلة - الزاب الصغير والزاب الكبير وديالا - إلى شواطئه الطبيعية من جبال كردستان وثاني كمية المياه التي تجري فيه. ويبلغ معدل ما يجليه النهران من الطمي من مروعةات زاغروس ومرتفعات الأناضول ومنابعهما في الأراضي التركية في موسم الفيضان حوالي ثلاثة ملايين طن يومياً، وهو ما أدى إلى ترشب الطمي، وتراكمه عبر العصور ومن ثم إلى تراجع مياه الخليج جنوباً. وفي العصور القديمة كانت مياه الخليج العربي الضحلة تغطي هذه المنطقة حتى شمال بغداد إلى أن ردمها الطمي. وكان لاندماج مياه الخليج شمالاً عن النمسوب الذي هم عليه الآن تأثيره على مياه النهرين، حيث يضعف جريانها ويرتفع منسوبها، وتكوين أكثر عرضة للفيضانات وتغيير مجاريها، ومن ثم فإن المنطقة تحتوي على الكثير من البحيرات والمستنقعات والأهرام وأدغال القصب(1). وتلتقي دجلة والفرات عند مدينة قرنة ليشكلا معاً شط العرب الذي تقع عليه البصرة - الينابيع الوحيد في العراق - وصولاً في الخليج العربي بعد التقائه مع نهر قارون المنحدر من الأراضي الإيرانية. ويلتقي طول شط العرب 185كيلاً، ويصب في الخليج، مسئولاً في مقصده مجموعة من الجزر المنبسطة، ويحول ذلك دون قيام الموانئ البحرية عليه. وإلى الغرب من الفرات ومن شط العرب تمتد الصحراوات التي تأخذ في الارتفاع كلما اتجهنا نحو سوريا والأردن والجزيرة العربية.

وتوجه لغزارة المياه في مقاربهما الشمالية وسرعة تدفقها وضيق مجاريها وشدة انحدارها حفر دجلة والفرات أسرة عميقة في تلك الصخور والجبال في أودية ترتفع الضفاف على جانبيها عالياً، وهذا مما حدد مجاريهما الشمالية بصورة دائمة لا تغير. كما أن شدة انحدار المجري عن الضفاف المحيطة بها جعل
من الصعب الاستفادة من النهرين في تلك المناطق لأعمال الري. أما في المناطق الجنوبية المنخفضة، حيث السهول الفسيحة المنبعثة، فإن تدفق الماء يصبح بطيئاً وتتسع مجاري النهرين وترتفع قليلاً عن المناطق الحمايدة لها، وهذا مما يسهل عمليات الري وشق القنوات، لكنه يضطر الأهالي لتشييد السدود على ضفاف النهر؛ لتجنب مخاطر الفيضانات. كما أن ارتفاع مجرى النهر يؤدي إلى كثرة التفرعات، بحيث نجد أنه في بعض المواقع ينقسم المجرى الواحد إلى عدة مجاري تنصير بينها عدداً من الجزر الصغيرة والأهوار والأحوار، ثم تعود هذه المجاري لتلتقي لاحقاً ببعض مرة أخرى لتكون مجرى واحداً، وهكذا. فضلاً عن أن المجرى، نتيجة لتراكم الطمي وزراعة ارتفاع المجرى عن المنطقة المحيطة، كثيراً ما يغير مساره زاحفاً يمنة أو يسار؛ ليشق لنفس مجرى آخر يبتعد تدريجياً على مر السنين عن المجرى السابق. وتغير مجرى النهر يعني انقطاع الماء عن المدن والقرى التي كانت قائمة عليه، ويغتن ذلك هجر أهلها لها لينشروا لهم مواطن جديدة بالقرب من المجرى الجديد، كما تشهد على ذلك الأطلال والخرائب وبقايا الترع والسدود المنقرضة التي تنتشر في المنطقة. وفي تلك المناطق الجنوبية التي تقوم فيها الزراعة على الري يلاحظ أن مجرى النهر يكون أعلى من مجرى دجلة في بعض المناطق، على حين يكون مجرى دجلة هو الأعلى في مناطق أخرى. وقد استفاد مهندسنا الري من هذه الخاصية، حيث يستمدون على النهر الذي يعطي مجاراً في عمليات الري، على حين يستمدون على النهر الذي ينخفض مجاراً في عمليات الصرف.

واعتاد العرب منذ القدم أن يطلقوا اسم سواد العراق على ما كان قديماً يسمى بابل، وهو كل ما يقع جنوبى بغداد، ابتداء من الروادة على نهر الفرات ومن سامراء على دجلة، ويطلقوا اسم الجزيرة على الهضبة التي تبدأ من بغداد على ضفاف دجلة، حيث تضيق الدلتا قليلاً، ويقترب النهران أحدثهما من الآخر، حتى جبل سنجر شمالاً، وهو جبل يمين من الشرق إلى الغرب وقئطنه اليزيديون. وتتألف بلاد الراشدين أساساً من جزءين: الجزء الواقع شمال بغداد، وهو بلاد الآشوريين القدماء، حيث يجري نهر الزاب الكبير والزراب الصغير.
ويصبيان في دجلة، ويمكن أن تقوم الزراعة في هذه المنطقة على مياه السيل والأنفطار. أما الجزء الجنوبي فهو ما يسمى قديماً بباب، وفي التاريخ القديم كان جنوب بابل يسمى بلاد السومريين وشمالها بلاد الأكاديين، وهذه المنطقة خصبة جداً حكمها ما يربى فيها النهران من النبات، لكنها شديدة الحرارة الأفول والجفاف لا يمكن أن تقوم فيها الزراعة بدون الري من مياه الأنهار بواسطة السدود والقنوات. وتعاني التربة من مشاكل الملوحة والقلوية، نظراً لقلة الأطرار وشدة حرارة الصيف التي تؤدي إلى سرعة التبخر وتركيز الأملاح القلوية في التربة، لذلك فهي تحتاج إلى أعمال صرف جيدة ومستمرة.

جغرافيا بلاد الرافدين وبيئاتها المتباعدة من تحت المنطقة ميزات فريدة أهلتها لتكون مهد الحفاظات وأعطتها الأفضلية لتكون أول مكان في العالم تولد فيه المدن ونشأ الملوك والدول. فقد اختصت مناطقها الشمالية بتوافر الأسلاف الفطرية للحبوب، والحيوانات التي تمكن الإنسان من تدجينها لأول مرة مع إطلالة العصر الحجري الحديث. تلك هي المنطقة التي بدأ فيها المزارعون الأوائل تجاربهم في تدجين النباتات واستئناس الحيوانات قبل أن يتمكنوا بعد اختراع المحاصيل والأدوات الأخرى من النزول إلى أحوار الأنهار الجافة في المناطق الجنوبية. وفي منطقة الدلتا هنالك النباتات النهرية والمسطحات المائية التي فرت معيناً لا ينضب من الأسماك والطيور، وهناك المراحي والحقول التي استفاد منها الرعاة ووفرت غذاء وفيراً لحيواناتهم. فضلاً عما يوجد به دجلة والفرات من الطمي الخصب ومياه الري التي وسعت من رقعة الأرض المزروعة، وساعدتها على وفرة المحاصيل، وجعلت من المنطقة سلة غذاء قادرة على إعاشة الجيران من البشر. ومن المعلوم أن محاصيل الزراعة التي تعتمد على الري أوفر بكثير وأضمن من محاصيل الزراعة البدنية أو تلك التي تعتمد على الفيضات ولا تنتج إلا غلة واحدة على مدار العام، على حين يمكن لزراعة الري أن تنتج محصولين أو ثلاثة(2). ولا تقتصر المحاصيل على الخنطة والشعير بل تشمل، على ضفاف الأنهار خاصة، حدائق النخيل والبساتين التي تنتج مختلف أنواع الفواكه والخضروات وعلى مدار فصول السنة. هذا التكامل البيئي والتنوع
الموسمي في مصادر الغذاء من الأسماك والطيور والماشية والحبوب والفواكه
أعطى المنطقة مرونة بالغة، وقدرة فائقة على التكيف بسهولة مع الظروف الطارئة
ومواجهة الأزمات وتجنب المجاعات، ومكن الريف العراقي منذ فجر التاريخ أن
يُعيشه مدنًا مكتظة بالسكان(3). وعلى الرغم من خصوبة النَّبْر في جنوب
العراق التي توفر محاصيل وفيرة وفيرة، إذا توفرت لها مشاريع الري والصرف
الملائمة، فإن المنطقة تفتقر إلى الأخطبوط والأحجار والمعادن التي لا توجد إلا
في المناطق الجبلية شمالًا؛ لذا اعتمدت الحضارات والمالك التي قامت في تلك
المنطقة على التبادل التجاري ومقابلة المنتجات الزراعية والحيوانية والهجراء
والأسماك والمشغولات الخوصية والجلدية مما تحتاج إليه من المواد الخام(4). وتعد
وفرة المحاصيل الغذائية في جنوب العراق بضخمة السكينة والحيوانية ومحاصيله
الزراعية من الحبوب والتمور والفواكه من جهة، افتقاره إلى المواد الأساسية من
جهة أخرى، من أهم العوامل التي شجعت على ازدهار عمليات التصدير
والاستيراد وكثافتها(5). وانعدام وسائل التواصل والبريد وال<r>المُرِيض</r>
الناعمة في تلك الفترة
المبكرة من تاريخ الإنسان عوض عنه وجود دجلة وال<r>المُرِيض</r>
الذين شكلت روافدهما شريانًا حيويًا سهلت التواصلات ونقل البضائع وتبادل السلع، وقد
ساعد ذلك على تشتيت حركة التبادلات التجارية بين جنوب العراق والمناطق
الحيطة، إضافة إلى تسهيل نقل المواد الغذائية من مختلف مناطق الريف إلى
المدن(6). وكان لتقديم وسائل التواصل فيما بعد أثر الفعال في تشجيع
التبادل التجاري وحركات الاستيراد والتصدير بين المدن، وهو ما تمّ وساعد
على ازدهار مختلف الخرف والصناعات الدقيقة التي تتطلب إجادته مهارة عالية
وخبرة طويلة وفيرًا دائماً، وكذلك إلى مواد خام قد لا توفر محلياً. كما أسهم
ذلك في كثافة التواصل والاحتكاك بين البشر من مختلف الثقافات والمجتمعات،
بما يعني ذلك من تناقص وتوافق وتوسيع للمدارك وتحفيز الهمج على الإبداع
والعشق(7). ويمكن أن يقال عن حضارة العراق إن أهم ما يجب أن نبدأ حضارة
الطمي والطين، فقد استفادوا من الطمي الخصب في الزراعة، واستخدموا الطين
والطب الجف الجف في جميع أعمال البناء وفي صناعة الفخار والآخر، وفي عمل
الأخلاق والألواح التي نقشها عليها الرسوم والكتابات المسمارية التي خلدته.

المتطلبات الاقتصادية والتكنولوجية لنشوء المدينة

كانت بدايات الاستيطان في شمال بلاد الرافدين عبارة عن واحات وقرى زراعية صغيرة متعددة ومتناهرة على النطاق وفي المناطق الجبلية، كل منها مكتفية ذاتياً وشبه معزولة عن غيرها، ولا يزيد عدد سكانها عن بضع مئات ينون دورهم من الطين المجفف والبوص، ولا تزيد مساحة الواحدة منها عن غرفة أو غرفتين. وبعد اكتشاف الإنسان للزراعة ثورة بمقاييس العصر الحجري وكفاح الإنسان للحصول على الغذاء. إلا أن وسائل الإنتاج البدائية لم تكن تسمح بزيادة الحصول ومضاعفة الإنتاج وإعاقة أعداد كبيرة من الناس؛ لذا فإنه إذا زاد عدد سكان القرية عن حد معين انخفض قسم منهم وذهبوا للبحث عن مكان مناسب يؤمنون عليه قرية أخرى. كانت الأدوات التي استخدمها المزارعون آنذاك ما زالت أدوات بدنية جداً، وكان محصولهم من الزراعة زهيداً بمقاييس العصور التالية، لكنه كان وفيراً بمقاييس العصور السابقة، وبخاصة أن الأراضي البكر الصالحة للزراعة كانت متوافرة آنذاك وترتبها غنية، مما عوض عن بدانة التكنولوجيا(8). إن مستوى معيشة المزارعين البدائيين بقياتهم البسيطة لم يكن في حقيقة الأمر ليختلف كثيراً عن مستوى معيشة الصحابين، ولم يكن هناك ما يكفي لإعاقة من لا يعملون في الزراعة وإنتاج الغذاء بشكل مباشر. الاختلاف الوحيد هو في مصدر الغذاء الذي أصبح مستنناً مدجناً يفوق عليه الإنسان إلى درجة كبيرة، وفي القدرة على إنتاج فائض يفوق لسد الحاجة الغذائية خلال الفترات التي تفصل بين موسم حصاد الموسم الذي يليه، والموا جهة بين فصول من القد والكبد تدخلها فصول من الراحة والاسترخاء يمكن للمزارعين خلالها مزاولة أعمال أخرى غير الزراعة(9).

في تلك المراحل البدائية لم يكن المزارعون قادرين على استغلال أحواض الأنهار والأودية القريبة منها؛ لأنها كانت، على الرغم من خصوصيتها نظراً لما
يرميه فيها النهر في أثناء فيضاناته من الطمي، مناطق جافة، مطرها شحيح، وترابها صلبة، يصعب على الأدوات البدائية حراثها. جاءت النقلة الحقيقية في حدود الألفية السادسة قبل الميلاد حينما بدأ المزارعون، بعد تقدم التكنولوجيا وتراث الخبرات في مجالات الزراعة وتحسين الإنتاج واستصلاح الأرض وتصريف المياه، تجاربهم الأولية في الزراعة بمحاذاة الأنهار يماثلها التي لا تقطع، ترتبها الخصبة، وضفافها النسيجية، وأراضيها المربعة، ومناخها المعتدل المثال نحو الدفاع. ولم تكن الكثير من تلك القرى البدائية تتعمر طويلًا لأسباب كثيرة، منها مشا توالی سنوات الجفاف أو زيادة ملوحة النهر نتيجة الممارسات الزراعية الخاطئة، وهو ما يضطر أهلها إلى هجرها والبحث عن مكان أنسب للاستيطان. وشيئًا فشيئًا صارت تكبر القرى ويتقارب بعضها من بعض، وصارت كل مجموعة من القرى المتناوبة التي تتكلم لهجة واحدة، وتشتت في العادات والتقاليد، وتدني آلية واحدة تتعقد حول مركز حضري يضم معبداً يقدم فيه القرابين وتقام فيه الشعائر الدينية والطقوس المناسبة بالخصب والنمو. والزراعة هي الخطوة الأولى التي مكنت الإنسان من الاستقرار ومهدت الطريق أمام قيام المدينة والحضير. لم يعد الإنسان بحاجة إلى المرحال المستدمة بحثا عن مصادر الغذاء، وأصبح قادرًا على أن ينتج ما يزيد من كفايته بجهد أقل وعلى رقعة من الأرض أصغر بكثير من تلك التي كان يعتاش عليها في مرحلة الجمع والصيد. الزراعة مكنت الإنسان من إنتاج فائض غذائي قابل للمتخزين يمكن التعويل عليه على مدار العام، واقتطاع جزء منه لإعاشة شريحة من السكان يعملون في حرف تخصصية متنوعة، ويتروجون سلعاً أخرى غير المواد الغذائية. وزيادة كمية الغذاء المتج مع تقليص المساحة اللازمة لإنتاجه يسمح بزيادة الكثافة السكانية، وكذلك العدد المطلق للسكان. ولا شك أن الزراعة أمر ضروري لقيم المدن وساق له، لكنه في حد ذاته ليس سيئاً كافياً لذلك؛ إذ إن هناك شروطًا أخرى، تقنية وبشرية، لا بد من توافرها. المدن والخواضير تجمعات سكانية تضم أعدادًا غفيرة وأصنافًا غير متجانسة من السكان الذين لا يعملون في مجالات إنتاج الغذاء، بل في حرف ومهن أخرى متنوعة.
ويحتاجون لإعادتهم إلى فائض ضخم من الإنتاج الزراعي تصدره لهم المناطق الريفية المحيطة بالمدينة. وإنتاج هذا الفائض ونقله إلى المدن يتطلب توسيع رقعة الأرض المزروعة وتحتاج تكنولوجيا متقدمة في مجال الزراعة ومجال النقل والمواصلات. وإذا كانت رقعة الأرض المزروعة في أحواض الأنهار قابلة للتوسع فإنها تحتاج إلى مهارات وتقنيات عالية لحرث الأرض وشق القنوات لجلب مياه الري وتصريفها، وبخاصة كلما ابتعدنا عن النهر. وهذه الأرض الصبابة لا تفيد في حرثها الأدوات البدائية التي كان يستخدمها الزوارقون الأوائل، لذلك لم يصل فائض الإنتاج الزراعي إلى الحد الذي يسمح بظهور المدن إلا بعد اختراع المحارث الذي سهل حرث الأرض وشق القنوات، والعملة التي استخدمت في تصنيع العريض لنقل الغلال والحاصل وتوسيعها من المنتج إلى المستهلك عبر المسافات الطويلة. ويعود اختراع العقالة المحارث إلى الألف الرابع قبل البلاد(1). ولم يكن من الممكن الاستفادة منها بالدرجة القصوى لولا أن الإنسان كان قد استأثر في حيونات النقل التي سخرها واستفاد من طاقتها في عمليات جبر المحارث لحرث الأرض، وجبر العرق لحمل الأثقال. ومن الابتكارات المهمة أيضاً الأشرعة التي استخدمت لتسخير القوارب والسفن لنقل البضائع والمواد عبر الأنهار والمرام المالية.

ظهور التعدين

لعل أهم نقلة حضارية شهدها الإنسان ظهور التعدين والانتقال من العصر الحجري إلى عصر المعاصر، بدأ الستار يدب على العصر الحجري بعد أن اكتشف الإنسان أن هناك أصناماً من الأحجار لا تحتزم ولا تتفتت إذا طرقت لكنها لدنها طبيعة تحتفظ بسماسكها مع تغير شكلها. ومن بين المعاصر الموجودة على سطح الأرض في حالة نهية صافية يبدو أن الذهب والفضة والنحاس كانت الأولى التي عرفها الإنسان واجتذبت انتباهه، وربما كان أولها الذهب الذي وجد مخلوطاً بالرمل والحصى في مجارى الأنهار. لكن الذهب لا يصلح لصناعة الأدوات أو الأسلحة نظراً لطراوته وليونته، لكنه يقاوم الصدأ وجمال المنظر.
وستخدم منذ بداية اكتشافه في صناعة الحلي وأدوات الزينة، كذلك ندرة الفضة ولزونتها منعت من استخدامها في تصنيع الأسلحة والأدوات واقتصرت على الحلي والمجوهرات.

وكان حديد النيازك والنحاس من أوائل المعادن التي اكتشف الإنسان مناسبتها لصناعة الأدوات. وتعود البدايات القديمة الأولى لاستخدام النحاس إلى حوالي 8000 سنة قبل الميلاد حيث وجد الإنسان في هيئة النقي فرق سطح الأرض على شكل كتل وشذرات بأحجام مختلفة، وتعامل معه بديلاً للحجر في صنع بعض الأدوات، ومن خواص النحاس، خلافاً للصخور، أنه طبع ولدن يمكن تشكيله بالطرق عليه وهو بارد وقد سهلت طروحته على الإنسان أن يصنع منه أدوات حادة وصلبة بواسطة الطرق، والنجاس معدن لين لكن تزداد صلابته وقوته بالطرق المتكرر، إلا أنه إذا زاد الطرق عن حد معين يصل المعدن إلى درجة يصبح فيها قابلاً للتنقيص والتحطيم، ولكن يمكن استعادة لدانته بتسخينه ثم تبريده بتغطيسه بالماء، وبتكرر هذه العملية يمكن الحصول من النحاس على أداة قاطعة بالشكل المطلوب، طرفها صلب وحافتها حادة، يمكن سنية زيادة حدتها بالصقل والشحذ.

وقد تبدو ميزة الأدوات المعدنية وتتفوقها على الأدوات الحجريه واضحة لنا الآن، لا سيما فيما يتعلق بالقطع والقص والخفر، لكنها لم تكن كذلك في بداية تصنيعها منذ آلاف السنين. في البداية كانت المعادن نادرة، وعمليات الصرح والتعليم والخدمة بدائية، كفءة الأدوات محدودة، وتصنيعها مرهاً ويسغرق وقتاً طويلاً. ولم تكن بالكفاءة التي للأدوات الحجريه. كانت الأدوات القاطعة المصنوعة من الحجر أحد حافظ وأمضى من تلك المصنوعة من النحاس، أما حديد النيازك فكان من الندرة بحيث لم يتوقف منه ما يكفي لصناعة الأدوات. وكانت الأدوات المعدنية في بداية تصنيعها لا تختلف في شكلها عن الأدوات الحجريه كما لو كانت مجرد تقليل لها، وشيئاً فشيئاً بدأ الإنسان يدرك طروحة المعادن ولداتها وقابليةها للتصنيع وفق قواعد وأشكال متعددة وتنوعه.
فعلى سبيل المثال كان الحجر المصنوع من الحجر قصيراً، لأن طوله يعرضه للكسر بسهولة؛ ولذلك كانت الخناجر العضدية تصنع في البداية على هذه الشاكلة، حتى أدرك الإنسان لاحقاً إمكانية صنع خناجر عضدية طويلة دون تعرضها للكسر، وهو ما أعطاها القدرة على الطحن وعلى القطع.

صحيح أن الإنسان اكتشف منذ حوالي سنة 6000 قبل الميلاد إمكانية إذابة النحاس وصبه في قوالب معدة سلفاً لاستخدام الشكل المطلوب، لكن شيوخ استخدام الأدوات العضدية لم بدأ حقيقة إلا بعد أن اكتشف الإنسان أسرار التعدين عن طريق صهر المعادن واستخلاص خاماته من الصخور وذلك في حدود سنة 4000 قبل الميلاد (14). ومن السهل النقاط الأحجار كما هي موجودة في الطبيعة وتشظيتها وعمل الأدوات منها حسب الشكل المطلوب، كذلك بالنسبة لحديد النيازك والنحاس النقي الموجود على سطح الأرض والذي من المحتمل أن الإنسان الأول التقطه مثلاً ينقط آي حجر، وطرقه وهو بارد مشابه يطرق الحجر، وعمل منه ما يريده من أدوات. لكن عمليات التعدين واستخرج المعادن النقية من خاماتها الصخرية أمر آخر، إذ إن منظر هذه الخامات وشكلها من صخر أو رمل لا تبدو مختلفة عن غيرها من الصخور والرمال، ولا تشبه أبداً المعادن التي يمكن الحصول عليها منها. لذا لم يكن من السهل على الإنسان معرفة ما تحتويه هذه الخامات من معادن، والتي تحتاج معرفتها واستخراجها إلى عدة عمليات لا تخلو من التعقيد، ويجري القيام بها إلى قدر غير قليل من الدرية والخبرة. والنحاس من أقوى المعادن التي استخرجت خاماتها بطرق التعدين في منطقة الشرق الأوسط، وعلى الأخص عند السوميرين.

وجاءت الخطوة الأخيرة حينما طور الإنسان طرق إذابة النحاس وصبه في قوالب مشكلة حسب الطلب. في البداية كانت القوالب المستخدمة لتشكل النحاس المذاب عبارة عن طبعة تخمر في الرمل أو على طين الفخار. ثم بعد ذلك صارت الطبعة تخمر في الصخور لتأخذ صفة الديوامة. ثم جاء وقت صارت تشكل القوالب من مواد مختلفة، ويتكون القالب الواحد من عدة أجزاء يؤلف
فيما بينها ويركب بعضها على بعض. ومن أقدم القوالب قابل على شكل 
لصناعة الفؤوس، بحيث يكون الذراع القائم هو الفأس الذي ينتهي بحافة 
حادة، على حين يُحيى طرفًا الذراع المعرز في الأعلى على النصاب الخشبي 
ويسدّان عليه. أما قابل الخنجري أو السيف فإنه عادة يكون من حفر طويلة 
بمقاس الجزء القاطع من الأداة، يضمن في الوسط أخدودًا طولياً ضيقًا يبدأ من 
النهاية المستدقة حتى النهاية العريضة التي تثبت في المقبض ليشكل ضلعًا متصلاً 
بدعم الأداة ويزيد من قوتها ومقاومتها للانحناء. وصنع الأدوات المعدنية عن 
طريق صبها في قوالب مكن الإنسان من سكنها وفق أشكال وهيئات يستحق 
تحقيقها باستخدام مادة الحجر التي تفتقر إلى طرازية المعدن، كان يصنع أدوات 
مقعرة ومحززة وممزقة وله فتحات وثقوب تتخذها من القالب، بدلاً من 
حفرها عليها بعد صنعها. هذا يعني أن حجم الأداة المطلوب غير محدد بحجم 
القطعة التي تصنع منها، كما هو الحال بالنسبة للآدوات الحجرية، ولكن يمكنها 
أن تتخذ أي شكل يحدد سلباً بواسطة القالب. كما أن الأدوات المعدنية التالية 
لا ترمي مثل الأدوات الحجرية، بل يمكن الاستفادة منها بإذنها بإعادة قبولتها. 
وتتميز الأدوات المعدنية الطبيعة عن الأدوات القابلة للتكسر المصنوعة من الحجر 
والعظم والقرن بأنها مقاومة للصدامات، ويمكن أن تتشوه وتتفقد شكلها دون أن 
تكسر وتفتت. وإذا ما اعترفت يمكن تدويلها وإعادتها إلى شكلها الأصلي. 
والقطع المعدنية قابلة للتنتيج بعضها بعض. كما يمكن تصنيع أدوات معدنية 
في غاية الدقة مثل الإبر والمحارب والدبابيس والستائر(15).

وقد مضى وقت طويل جداً على اكتشاف التعدين قبل أن تحل الأدوات 
المعدنية محل الأدوات الحجرية. وتعود البداية الحقيقية لعصر التعدين إلى حدود 
سنة 3500 قبل الميلاد. وقد ارتبطت مع اكتشاف البرونز الناتج عن إضافة نسبة 
قليلة من القصدير إلى النحاس. لكن استخدام البرونز لم يصبح شائعاً في 
الشرق الأوسط إلا بعد سنة 3000 قبل الميلاد (علماً بأنه لم يصل إلى وسط 
وشمالي أوروبا إلا في حدود سنة 1700 قبل الميلاد). ويتم خلط النحاس مع 
نسبة قليلة من النحاس (في حدود 10%) له صلاحية أكبر، ويجعله أكثر طوعية.
وأسهل معالجة. والبرونز أكثر صلابة من النحاس وياوء تحت درجة حرارة أقل، وهو أسهل في الصهر والصب في قوالب. لكن القصد القدر نادر الوجود، وهو ما استلزم بلدان الشرق إلى استيراده من أماكن بعيدة. وكان البرونز باحث التكلفة، وكذلك النحاس. لذلك قصر استخدام الأدوات المصنوعة من هذه المواد على الملوك ورجالات المعبد والأثرياء وفي صناعة الأسلحة. أما الفلاحون والناس البساطة فقد استمروا في استخدام الأدوات الحجرية حتى تم اكتشاف الحديد، علمًا بأن اكتشاف الحديد لم يبلغ دور النحاس والبرونز والمعادن الأخرى التي ظلت رهن الاستخدام، لاسيما في الأعمال الفنية ونحت التماثيل. 

وبعد 1000 ألف سنة من اكتشاف البرونز يظل العصر الحديدي الذي يحل محل البرونز، نظرًا لوفرته وسهولة انتشاره وسهولة الحصول عليه، حيث يتشكل نسبة 5% من القشرة الأرضية، على حين لا يشكل النحاس إلا نسبة ضئيلة جداً، بحيث إن كل وحدة من النحاس موجودة في قشرة الأرض يعادلها 500 وحدة من الحديد. وبذلاً تعدين الحديد في الشرق الأدنى على يد الحشيشين في الأراض قبالة 2500 قبل الميلاد، لكنه لم يستخدم في تصنيع الأدوات ولم يشع استخدامه في الشرق الأدنى بشكل واضح إلا بعد استكمال كل التقنيات الضرورية لتجنيمه وتصنيعه مع بداية ما يسمى العصر الحديدي حوالي عام 1200 قبل الميلاد، ولم يصل إلى أوروبا إلا في حدود عام 400 قبل الميلاد. (17) وخلافًا للنحاس، لا يوجد الحديد تقريباً إلا في حديد النياترك النادر الوجود، والذي يحتوي على نسبة عالية من النيكل، كما أن عمليات تعدينه واستخراجه من الخامات أصعب من تعدين النحاص ويحتاج إلى حرارة عالية جداً، ولذلك جاء عصر الحديد متأخرًا عن عصر النحاس. وال الحديد، مثله مثل النحاس، تزداد صلابته بالطرق المتكرر ويمكن أن تعمل منه أدوات حافثها حادة وصلبة. ويمكن للحديد أن يستعيد لدوئته بتسخينه ثم تبريده، على أن يتم تبريده ببطء. والحديد أصعب بكثير من النحاس والبرونز، وهو كذلك أكثر طوعية؛ حيث يمكن ثني قضيب من الحديد في أي اتجاه دون أن يتقصف. ولم يكن للنحاس الذي سبق للإنسان أن مهر في تعدينه وتصنيعه هو والبرونز قبل
الحديد بآلاف السنين الكفاءة والصلابة والطوعية نفسها التي للحديد، فلهذه عدد من الميزات التي تعلو على ميزات النحاس والبرونز والحجر، فهو معدن متواجد ورخيص وسهل الاستخراج، وهو على قوة أكثر قابلية للطرق والتشكيل والإداة والسبك لتصنع منه الأدوات الزراعية والأواني المنزلية والأسلحة الفتاكة التي تبقى في حالة جيدة لمدة طويلة نظراً لقوة الحديد ومتانته.

ويمكن القول بشكل عام إن عصر التعدين حل بعد أن طور الإنسان كثيراً من الاختراعات والعمليات السابقة والإنجازات التقنية الضرورية المهمة له والتي منها: (1) التعرف على الخامات والصخور التي تحتوي على المعادن. (2) استخراج المعادن من الخامات وتنقيتها من الشوائب، (3) مزج نوعين أو أكثر من المعادن بنسب معينة لاستنتاج معدن أصل أو أفضل في التشكيل والكولبية؛ كأن تمزج القصدير والنحاس للحصول على البرونز، (4) الحصول على الفحم وعمل الأفران الفخارية والمناطق التي توفر الحرارة العالية اللازمة لتصهر المعادن. (5) عمل الأواني والبواقت الفخارية الضرورية لنقل المعادن المصهرة من الأفران وصبها في القوالب المصنوعة هي أيضاً من الفخار، (6) توفر الأدوات الضرورية لتحريك المعادن المنتهية وطرقها من ملاقيط ومطارق وستانس وغيرها، (7) عمل قوالب من الفخار لصب المعادن وتصنيعها وفق أنماط محددة.

ويعتبر تصنيع الأدوات المعدنية والمعدات إلى صناعة شهرة يتخصصون في هذه المهنة Wittgenstein لها، ويطوفون القرن الزراعية يعرضون خدماتهم لقاء ما يوجد به عليهم المزارعون من محاصيلهم. وكان تغلغل الأدوات الحديدية في صلب العملية الإنتاجية إبتداءاً بانتهاء مرحلة الاكتفاء الذاتي، وتدشين مرحلة جديدة تقوم على المقايسة والتبادل بين المزارعين وأصحاب المهن من الحرفيين، وهؤلاء بدورهم يحتاجون إلى التجار الذين يوردون لهم المواد الخام اللازمة لصناعتهم من أماكن توافرها، والتجار يحتاجون إلى من ينقل لهم بضائعهم من منشئاته إلى أماكن الاستهلاك، وهكذا. كان التعدين والحرف المساندة باهظة التكاليف اجتماعياً؛ لأنها تقوم على انتزاع عدد كبير من الناس في عملية
المراحل التطور الحضري التي سبقت قيام الدولة

تعود بدايات نشوء المدينة في بلاد الرافدين إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد، وبعد ذلك بفترة وجيزة و بشكل مستقل و متعدد بدأت على ضفاف النيل، ثم تباعاً على ضفاف السند غرب الباكستان وفي شمال الصين وأمريكا الوسطى. و تدل الشواهد الأثرية المتواضعة حتى الآن على أن الزراعة بدأت في وادي النيل في منتصف الألفية السادسة قبل الميلاد، وهو تاريخ متاخر نوعاً ما عن بدايتها في بلاد الرافدين. وبعد ذلك بفترة وجيزة ظهرت المدن التي سرعان ما توحدت تحت سلطة مركزية واحدة مع نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد. وعلى عكس ما كان عليه الوضع في بلاد الرافدين، التي استغرق الانتقال فيها من الزراعة البدائية إلى ظهور المدينة حوالي 4000 سنة، فإن دولة الفراعنة ظهرت في حوض النيل بفترة قصيرة لم تستغرق أكثر من 2500 سنة بعد ظهور الزراعة، واستمرت محافظة على وجودها واستقرارها لمدة 2500 سنة أخرى (19).

وladığı ظهور المعبد في تلك المراكز الأولى بوادر نشوء المدينة، ومن ثم الدولة والسلطة المركزية. ولم تكن وظائف المعبد الاقتصادية لنقل أهمية عن وظائفه الدينية ؛ إذ إنه تحول بالتدريج من مجرد مكان للعبادة و حث الناس على مراقبة العدالة والمعاملة الحسنة و فرض النزاعات فيما بينهم إلى مركز تخزين الفايل من النانج الزراعي، وإعادة توزيعه عند الحاجة. وصار الفلاحون الذين يتوافر لديهم فائض من الغذاء في أوقات الرخاء يودعونه في المعبد ينفع به الصناع والحرفيون، وكذلك الفلاحون منتشد عليهم سنوات القحط والجفاف (20). وكانت نسبة من ذلك الفائض تذهب لإعاشة رجال المعبد لقاء جهدهم في التنسيب والإدارة والتنظيم، علاوة على حرص الفلاحين على
أرضائهم ؛ لأن ذلك مما يرضي الآلهة . لذلك لا يستغرب أن ييدي رجال المعبد
اهتماماً خاصاً بشأن الزراعة وسبل تطويرها، وأبدوا حرصاً على زيادة
المحاصل، ووجدوا الفلاحين للقيام بمشاريع جماعية لشق قنوات الري
واستصلاح الأراضي وتوسيع رقعة المساحات المزروعة، وساعدوا في ضبط
التقاويم وتحديد الفصول والموافقات المناسبة لزراعة المحاصيل المختلفة . ولم يتردد
رجال المعبد في امتلاك مساحات من الأراضي الزراعية تولوا إدارتها وجي
غلتها، على حين عهدوا إلى الآخرين بالعمل عليها وفلاحتها . هذه القوة
الاقتصادية حولت سلطة المعبد ورجاله تدريجياً من مجرد سلطة عرقية أخلاقيَّة
إلى سلطة رسمية قسرية، وتحول إلى مؤسسة تتوج بالكتبة والموظفين والحرفيين
والبنانيين وعمال النسيج وغيرهم . وكلما يحتاجه هؤلاء من السلع والمواد الخام
جلبها لهم المعبد عن طريق علاقات التبادل التجارية التي أقامها مع الجهات
المعابد الأخرى . ولذك يفرض مكانته المميزة وهميته في النفوذ كان لا بد
للمعبد أن يحتل مركزاً استراتيجياً، وأن يشيد له بناء مهيباً وحصيناً تزبيه
الزخارف والتماثيل .

وفي بداية نزول المزارعين الأوائل من التلال والمناطق الجبلية ليزرعوا على
ضفاف الأنهار لم تكن هناك ندرة في الأراضي الصالحة للزراعة . إلا أن وفرة
الإنتاج الناجمة عن هذه الأوضاع الجديدة أدت إلى زيادة عدد السكان، وهو ما
أدى بدوره إلى زيادة الطلب على الأراضي الزراعية القريبة من النهر . وترتب
على ذلك نتاجاً ؛ أولاًهما الحاجة الملحة لشق قنوات الري لتوصيل مياه النهر
إلى الأراضي البعيدة عنه لاستصلاحها وزراعتها، والآخرين خطة التنافس
والصراع على الأراضي الزراعية المحاذية للنهر، وهو ما زاد من قيمة تلك
الأراضي وثروة من يتكونونها مقارنة بتلك البعيدة عن مصادر المياه .

في ظل هذه المستجدات برزت نخبة التجار التي أخذت في التشكل مع
ارتفاع قيمة الأراضي الزراعية، وزيادة حجم التبادلات التجارية، واستشراء
الأعمال الاستهلاكية، وأدى ازدهار الخرب والصناعات التي صاحبت نشوء المدن
وحركة الاستيراد والتصدير إلى تعاظم دور الوسطاء والتجار وازدياد ثروتهم ومكانتهم، وكان تركز الفائض في يد هؤلاء هو بداية نشوء الطبقية والفوارق الاجتماعية بين من يملكون الأرض ووسائل الإنتاج وأولئك الذين يكدحون لهم، وكرس ذلك حدة الفوارق الطبقية. وكلما تعددت الخرف والتخصصات وظهرت أنماط استهلاكية جديدة وحاجات إنسانية لم تكن موجودة من قبل نشطت حركة تبادل السلع والخدمات. وكلما تعقد النسيج الاجتماعي وتشاركت المصالح وتداخلت المنافع التي تبدأ شيئا فشيئاً تتح محل علاقات القربي في توجيه علاقات الناس بعضهم ببعض، وكلما زاد عدد أفراد المجتمع، وتبنايت خلفياتهم، وترابب بعضهم من بعض على رقة جغرافية محدودة تكثفت العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، وتشعبت صلاتها وتعددت قوتها وتنوعت أشكالها، وحلت الانتماءات والولاءات الطبقية والمهنية محل الانتهاجات وولاءات القربي. وهكذا يتحول المجتمع من مجتمع بدائي متجانس وبسيط تتحكم علاقات القربي إلى مجتمع مركب متعدد المشارك معقد التنظيم تتحكم المصالح المشتركة والانتماء لموطن واحد. وطبعية الحال فإن المجتمع الذي يصل إلى هذا المستوى من التطور لا بد له من سلطة تسير أمره وتضبط شؤونه وضمن للأمن والاستقرار. وهنا تبرز الحاجة إلى وجود قيادات قوية مدعومة بالعقائد والأيديولوجيات التي تعمل على تنظيم العلاقات الاجتماعية وحل النزاعات، وتسيير دفة المجتمع، والدفاع عن الوضع القائم والمصالح الطبقية، إضافة إلى تجنب الأيدي العاملة لإقامة المشاريع الضخمة؛ من تعيد الطرق، إلى شق القنوات، إلى بناء السدود ومشاريع الري. والكل يدرك أهمية وجود مثل هذه السلطة ويعمل على تحقيق ذلك، لكن هذا لا يعني محاولة قوة أكبر أن تغزو قوة أصغر وتبسط عليها سلطانها لتتخضع أهلها، وتفرض عليهم الخراج والإنحاوات لزيادة دخل ال хозяйة، ولا ينفي كذلك الثورات الشعبية التي تحدث لأن السلطة فشلت في أداء مهامها. إن بناء السلطة واستمرارها رهين بقوتها وسطورتها وقدرتها على إكرار الناس للاستقلال والخضوع لها مقابل ما يفترض أن تقدم له من الخدمات العامة والحماية العسكرية والقانونية وإقامة العدل وتطبيق حكم القانون.
وقد أدت زيادة عدد السكان والحاجة إلى تنظيمهم وتسخيرهم للقيام بالأعمال الجمعية والعمارية ومشاريع الصرف والري إلى تطور التركيب الاجتماعي والطبيعة وتراتبية السلطة، كما أن قوات بناء السدود وكذلك النزاعات على ملكية الأراضي كلها من الأمور التي تبرز فيها ميزة القوة العددية، وكذلك الحاجة إلى قيادة توجه وتنسيق وتوزع المهام والأدوار. وعلى هذه الخلفية نشأت نخبة متألفة من الزعماء المحليين والأخيراء ورجال الدين لها القوة على جمع فائض الإنتاج وإعادة توزيعه واستثماره في مشاريع الري وفي الحروب التوسعية والفتوحات. مع تنامي النزعة نحو التوسع وإخصاب مناطق جديدة تطورت وسائل الهجوم والدفاع وأسلاب الحرب وصارت التجمعات الكبرى تطمح إلى الهيمنة على التجمعات الصغرى لتسخيرها وللهيمنة على أراضيها ومقدراتها، وصارت التجمعات والاستوطانات الزراعية المتتالية التي تدين لمعد واحد تتنافر وتتوارى وتتجمع نفسها في أحداث سياسية مستقلة لأغراض الدفاع عن أراضيها وشرعت تبني الأسوار والخصون. ولا بد من التأكيد في هذا الصدد على أن الحرب بوصفها عدواناً منظماً تشبه جماعة مسلحة ضد أخرى يعتبر ظاهرة جديدة نسبياً في تاريخ الإنسانية. ولم تخلق المجتمعات البدائية من النزاعات والمشاكل، لكنها كانت نزاعات محدودة وعلى نطاق فردي وأضرارها لا تكاد تذكر، وغاباتها إما للاثار أو للقصاص أو أثر إعادة أو ما شابه ذلك من الأمور الشخصية. وإذا ما علمنا أن غاية الحروب الحقيقية ليست القتل وسفك الدماء والإبادة وإنما الاستيلاء على ما عند الغير واستغلاله، تبين لنا أنه لم يكن هناك دافع للحروب عند المجتمعات البدائية التي لا تملك مالاً ولا أراضياً، ولا يمكن لها أن تحصل من الحروب على غنيمة ولا تكسب من ورائها شيئاً، ولا تستفيد من استعباد بعضها بعضاً؛ لأنها لا تزعج أرضياً، وليس لديها صناعات ولا أعمال تتطلب أباداً عاملاً. أما في المجتمعات الزراعية فالأمر مختلف تماماً. هنالك الأرض وهمتلك الممتلكات وهمتلك استعباد المغلوبين وتسخيرهم، أو على الأقل فرض الجزية عليهم والحراج. (22)
وتشارك مصالح الأثرياء والقادة العسكريين ورجال الدين يفعل كلاً منهم
في أمور الحاجة للأخر، فالأثرياء منهم المال، والعسكريون عليهم حفظ النظام
والمتلكات والدفاع عن المدينة وتأمين الطرق التجارية وحماية المصالح الطلابية،
ورجال الذين يصوون الأهليولوجيات والمعتقدات اللازمة لتحرير الوضع القائم
وتكريسه. لكن هذا لا ينفي تنافس هذه النخب الثلاث على السلطة، نحنما
إلى ذلك مغريات الجاه والثروة. ولا تخلو علاقة الأثرياء والزعماء العسكريين
ورجال الدين بعضهم ببعض من مظاهر التوتر، بسبب تنافسها وحرص كل منها
على أن تقتطع لنفسها أكبر قدر ممكن من حيز السلطة والفوائد، لكنها ضمنياً
كانت متجدة ومتحالفة ضد السواء الأعظم من الدوامة والمستضعفين من
الحرفيين والعمال الذين ينون تحت وطأة سلطتهم واستغلالها. (23).
ولن تكون
هؤلاء النخب المتالفة قادرة على الاحتفاظ بواقعها وتحمل الأعباء المنتهكة بها،
dون أن يكون تحت إمرتها ورغم تصرفيها حاشية من المنتفعين والجنود المدنيين
على حمل السلاح، والموظفين المهرة، والخدم المتفرغين خدمتها وتغييذ
توجيهاتها وحماية مصالحها. وتشابك المصالح بين الأثرياء ورجال الدين والقادة
العسكريين وحاجة كل منهم للاخر واضطرارهم لتسقيف نشاطاتهم بشكل مستمر
تتملي عليهم أن يعيشوا في وكل من يتبعهم من الكتابة والموظفين والجنود
وأصحاب الحوانيت والصناع والحرفيين والبنائين بقرب بعضهم من بعض.
وبما أنهم لا يشاركون بشكل مباشر في عمليات الإنتاج الغذائي والزراعة، وبا
أن وسائل التواصل سوف تنقل لهم منتجات الريف آينما كانوا فهم غير
مضطرين للبقاء في الريف. وخلافاً للمزارعين، فإن طبيعة نشاطاتهم لا تحتاج
مزائحتها إلى مساحات شاسعة من الأرض، لذا يتكدسون حول المعبد والقصر
في تجمعات سكنية مكثفة كثيرة العدد وعالية الكثافة، بيواتها متراصة،
وشوارعها ضيقة ومترعرعة، تتخللها المجالات الصغيرة والحانات والحوانيت
ودكاكين الصناع. (24).
ونتحول هذه التجمعات السكنية إلى مركز ديني وإداري
وتجاري يحيط به الريف من كل الجهات ويبدو بالغة المزاج والأيدي العاملة.
وغالباً ما تقوم هذه المراكز على مفترق الطرق التجارية بالقرب من مصدر ماء
للشرب. هذه هي النواة التي تنشأ منها المدينة التي تختار بسرب لحمايتها وبوابات
لحراستها، وتهدف الطرق المؤدية إليها، وتقام في وسطها البناءة العامة والنصب
الضخمة التي تعطي طابعها، وتعكس قوتها وتبرز هيبتها في النفوذ، وتملأ
صدور أهلها بالفخر والاعتزاز، وتقوي من اتنامهم ول铐تهم لها. وبالإضافة إلى
تقسيم المجتمع إلى فئات وطبقات محدداتها الشروة والكفاءة الاجتماعية
والخصائص المهنية يظهر تقسيم آخر هو أهل المدينة (الدارة) وأهل الريف
(الطوارف) الذين يفرون المدينة بما تحتاجه من الغذاء، وأهل الريف لا يتزولون
طوعية عن ما يفيض من إنتاجهم لأهل المدينة، لكن قوة المدينة بسلطتها
القرصية تجبرهم على دفع الضريبة لها، مقابل توفير الحماية لهم، وتأمن المسالك
والحفاظ على الاستقرار الذي يمكن الفلاحين من مزاولة الزراعة، والتجار من
مزاولة التجارة. وعندما يستقبل على المدينة العيش بسكون الفائض الزراعي فإن
الفلاحين لا غنى لهم عن الخدمات والسلع والحرف والمنتجات الصناعية التي
تقدمها لهم المدينة عن طريق المقايبة والتبادل)(26).

وهناك دينية وتشريعات المدينة لا يعد الاعتماد على الذاكرة والتعليمات الشفهية
كافيأ، وأصبحت هناك حاجة ملحة لاختيار الكتابة والحساب، وإلى تبني
شؤون الحياة وتنظيم علاقات الناس بعضهم بعض، وبخاصة أن المجتمع لم يعد
مجتمعا صغيرا وبسيطيا، تم التعاملات بين أفراد مباشرة ووجها لوجه، وبعدت
المسافات الاجتماعية والمكانية، وتعدد الوسطاء بين الأمر والأمر، وبين البائع
والمشترى، وبين المستفيد ومن يقدم الخدمة. وحلت محل العلاقات القرابية
والاجتماعية علاقات المصالح والروابط الطبقية والمهنية والانتماء
الإقليمي)(27). ونظرا لاندماج الرقعة الجغرافية والكفاءة السكانية أصبحت هناك
ضرورة لتوجيه لغة التخطيط وتوحيد المقاييس والموازين والمكاتيب وسشة عملة
تفضيلية موحدة لتسهيل التعامل والتواهم بين الناس، وبدلًا من الاحتكام إلى
الأعراف والعادات القبليّة التي تختلف من مكان إلى آخر سن الحكام
والشرعون قوانين مكتوبة تسري على الجميع، وأنظمة واضحة تحكم علاقة
الناس بعضهم ببعض، ولم يعد الحكام قادرين على إتفاد توجهاتهم ولا الأثناء
قادرين على إدارة أملاكهم، ولا التجار على ضبط أمورهم المالية بدون الكتبة والمحاسبين، وكان لا بد من يعملون على شق قنوات الري وتوزيع الأراضي الزراعية وبناء المعابد والأسوار والخضور والقصور من الإله مبادئ الحساب والهندسة، كما أن الإله مبادئ الفلك ومعرفة منازل النجوم، التي تحولت في بعض مظاهرها إلى عبادة الأجرام السمارية، كان مفيداً في ضبط التفاوت الزراعية ومعرفة مواعيد زراعة مختلف المحاصيل وحني الغلال والخضاد. وقام المعبد بدور كبير في هذا الشأن، وأسهم إسهاماً فعالاً في تنسيق الكتابة وتطويرها لاحقاً؛ للاستفادة منها في تقدير النصوص المقدسة وتقنيات الممارسات الدينية، وتسجيل أساب الآلهة والحكام وإنجازاتهم وانتصاراتهم في الحروب وتخلد ذكرىهم، إضافة إلى تسجيل صفقات البيع والشراء والمدائن والعقود ولتدويل المفاهيم والمعاهدات السياسية وكتابة القوانين والمواقف. وأضاف المعبد إلى وظائفه الدينية مهمة التعليم وتخريج مختصين في الشؤون الدينية والأعمال البيروقراطية والديوانية.

ومن ثمما يأت المعابد الفرصة لظهور النخبة من رجال الدين، هيات الحروب الفرصة لظهور الزعماء والقادة العسكريين. ومن ثمما استمطر رجال المعبد تأثيرهم الروحي ودورة في تنظيم علاقات الناس الاجتماعية والاقتصادية لتعزيز مواقعهم وتكريس سلطتهم، كذلك القادة العسكريين عملوا بدورهم على تقوية زعامتهم وفرض إرادتهم، وبناء لأنفسهم قصوراً فخمة مفصلة عن المعابد. مع ازدياد أهمية التبادلات التجارية الواسعة وتأمين طريق التجارة البعيدة تعززت قوة القادة العسكريين الذين صاروا يعتمدون على جيوشهم الموالية لهم والخاضعة لامرتهم لبسط سيادتهم على المدن الأخرى وإجبارها على الدخول معهم في وحدة سياسية. ولم تلت أن آلت السلطة الحقيقية إلى الحكام العسكريين الذين استثناوا بقيادة الجيوش المنظمة، واحتكروا سن القوانين والتشريعات، وتعيين رجال الدين والحفاظ على أمن الدولة والتحكم بعلاقات التجارة، وحولوا حواضرهم إلى مراكز سياسية وإدارية ودينية واقتصادية وشكلوا مؤسسات بيروراقية ضخمة تأتي بأمرهم ونظمها تنظيماً هريماً
ليصدروا من خلالها أوامرهم وتوجيهاتهم إلى مختلف المديرين والمسؤولين، ومنهم إلى صغار الموظفين، ومنهم إلى عامة الناس. وهكذا حلت السلطة المدينة تدريجيًا محل السلطة الدينية، ومع مرور الوقت تحولت "مدينة العبد" مستقلة سياسياً، ومهد ذلك الطريق إلى "دولة مدينة" للقيام الدولة الوطنية.

وصار عدد المدن في ازدياد مطرد، وكل منها تطمح إلى التوسع ومد حدودها على حساب جاراتها، وهو ما أدى إلى حدة التوتر بينها والمواجهات العسكرية. ولم يكن من السهل دوماً إخضاع المدن الأخرى التي ما فتئ تطمح للاستقلال عن السلطة المركزية، وصارت تطلع إلى أي فرصة تضعف فيها سلطة الدولة لتنفصل عنها وتستقل بنفسها. وعلى هذه الشاكلة نجد أن تاريخ الممالك القديمة، ولا سيما في بلاد الرافدين، مراحة بين سلطة مركزية قوية على رأسها أسرة حاكمة تحكم قضائها على البلاد، وفترات تضعف فيها السلطة وتضمحل الأسرة وتتمزق البلاد إلى دولات صغيرة وضعيفة لا تنقطع الحروب بينها.(28)

بدايات القرى الزراعية

لم يكن المزارعون الأوائل قد أحكموا سيطرتهم بعد على قوى الطبيعة وظواهرها؛ لذا لم يزد إنتاجهم عن الحاجة المحلية. ثم جاءت فيما بعد مراحلة أصبح فيها الفلاحون عرضة للضغوط من قوى خارجية أجبرتهم على أن ينتجوا ما يزيد عن حاجتهم لإعاشة طبقات جديدة نشأت في المجتمع، تعمل في مجالات غير مجالات الإنتاج الغذائي. قبل ظهور الحضارة السومرية جنوب العراق في الألفية الثالثة قبل الميلاد، كان حوض دجلة والقرى عبارة عن قرى معزولة ومدن صغيرة متناثرة كل منها يشكل كيانًا مستقلًا ومكتفياً ذاتياً. وكان لكل مدينة حاكم سياسي مستقل بيده السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، ويحق له وحده إصدار الأحكام وتنفيذها، والتشريعات القضائية وإيام العدل بين الناس، وتعيين موظفي المعد وبيده قيادة الجيش وإعلان الحرب وشيئاً.(29)
ويُرجح المتتبعون أن تكون بدايات القرى الزراعية في المناطق الجنوبية من العراق مع نهاية الألفية السادسة وبداية الألفية الخامسة قبل الميلاد، حيث انتقل مركز النقل الحضاري إلى هناك بعد اندماج ثقافة حلف الشمالية. وبدأ هذه المرحلة مع ثقافة العَبْيِد، بناءً على اسم أول موقع عثر فيه على مخلفات تلك الثقافة. والمسمى يُشير إلى مسافة لا تزيد عن سبع كيلات شمال مدينة أور القديمة في أقصى جنوب العراق والتي تعتبر هي أيضًا من مواقع ثقافة العَبْيِد المتأخرة. ومن المواقع التي تعد البدايات الأولى لثقافة العَبْيِد ومهدًا لها موقع الحاج محمد على النفرات غير بعيد من السماوة، على بعد حوالي 150 ميلًا جنوب بغداد، وموقع أريدو Eridu الجنوب من أور ومن تل العُبْيِد مبادرة الصحراء قريباً من الخليج العربي. وقد أقام أهالي الجنوب من العُبْدِيين حقولهم على ضفاف الآهار، وشُقوا القنوات لري مزارعهم من مياه دجلة والفرات، كما كان يُفعل مزارع ثقافة سامراء الشماليين من قبلهم. ويدخل التمر غذاء أساسيًا. ويلعب قربهم من النهر نشاط السمك أحد مصادر الغذاء الرئيسية لهم، وما عُثر عليه من بقايا لأنواع من السمك صغيرة الحجم يشير إلى أنهم استخدموا الشباك لصيدها، وهذا ما تؤكده الأثقال الصغيرة المفرمة التي استخدموها لتغطيس الشباك.

واستخدم العُبْدِيون القصب في البناء، وصنعوا مناجل وفؤوسًا من الفخار المحفوظ لتنقيعه، كما صنعوا أيضًا من الفخار معدات الزراعة والبناء الأخرى؛ نظرًا لعدم وجود الأحجار في جنوب العراق. وكانت تلك المعدات سهلة الكسر لكن يتم استبدالها بسهولة ولذلك وجدت بكميات كبيرة في مواقع العَبْيِد.30) وهناك تقدم ملمحات في صناعة الأدوات وفي أعمال البناء، كما تم العثور على بعض التماثيل من الطين المحفوظ. وفي المراحل التالية من ثقافة العَبْيِد عرف الذهب والنحاس الذي تم الحصول عليه عن طريق التبادلات التجارية، ولكنه استخدم في صناعة أدوات الزينة فقط. واشتهر
العبيدون بصناعة الفخار الجميل، ويدو أنهم لم يعرفوا العجلة وصنعوا فخارهم باليد، علمًا بأنه يتم العثور على هذه الفترة على بداية صناعة القوارب ووسائل النقل المائي، حيث وجد المحققون مؤخراً لقارب مدفون في أحد المقابر في مدينة أريو يعود تاريخه إلى حوالي 6000 سنة، ولا يعد من أنهم أبحروا في الخليج العربي لأغراض التجارة وتبادل السلع، وربما غاصوا فيه على المآلات(31). وقد انتشرت ثقافة العبيد واتسع تأثيرها في كل الاتجاهات بشكل لم يسبق له مثيل، وعمت بلاد الرافدين حتى وصلت مع نهاية الألفية الخامسة قبل الميلاد إلى سوريا شمالاً وجنوباً إلى البحرين وشرق الجزيرة العربية وعمان(32).

لا أنه من غير المعروف ما إذا كانت قطع الفخار التي عثر عليها في شرقي الجزيرة العربية صناعة محلية أم أنها وصلت هناك نتيجة السيطرة على تلك المناطق وإحضارها، أم نتيجة الدخول معها في عمليات تبادل تجارية واسعة والحصول منها على ما تفتقر إليه جنوب العراق من المواد الخام مثل العادات والأحشام، وحجر الصوان(33). وحيث إن هذه القطع الفخارية لم توجد داخل الجزيرة العربية وإنما وجدت فقط بالقرب من السواحل فإن هناك من يرى أنها لا تعد أن تكون مخلفات تركها وراءهم البحارة العبيد الذين كانوا يرتادون تلك الأصقاع(34).

ويعد حجم القرى في تلك المرحلة على زيادة عدد السكان، وهذا مؤشر على تقدم الوسائل الزراعية وكفاءتها، وهو ما يعني زيادة الإنتاج الغذائي وتحقيق الفائض قادر على إعاقة أعداد كبيرة من البشر، كما تدل على ذلك المبانى وحجم المقابر. وكان أول معبد تم بناؤه في مرحلة العبيد في مدينة أريو، التي تحولت فيما بعد إلى مركز لعبادة الإله السموري إنكي Enki في البداية كان المعبد عبارة عن غرفة صغيرة زادت مساحتها في مراحل لاحقة إلى 24 متراً بالطول في 12 متراً بالعرض على مساحة مربعة فيما كان القصد منها فيما يبدو رفع البناء لحمايته من الفيضان. ثم توالى بناء المعابد لمدة 2000 سنة واحداً فوق الآخر على الرقعة نفسها حتى وصل حجم المعبد في مرحلة أوروك اللاحقة إلى مساحة كبيرة جداً بلغت 420.000 قدم على مصاطب عالية تسمى ziggurat زكورات
بدأت سلطة الكهنوت ورجال المعبد تقوى وتؤثر على الشؤون العامة، وتتحكم في مختلف النشاطات الاجتماعية والأقتصادية. وتنتهي ثقافة العبيد المرحلة أوروك، وهذا الاسم القديم للموقع الذي يطلق عليها ورقا في العصر الحاضر، وهي أول مدينة في التاريخ. تبدأ عصرنا أوروك تقريباً مع بداية الألفية الرابعة قبل الميلاد وتنتهي بهميتها (3800-3100) وتأتي بعد أوروك مع نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد مرحلة Jamdat Nasr جمدة نصر وصناعة الفخار على العجلة. وتم في تلك الفترة استتباب الخصان، وآخر على تماثل لعربات تجرها البغال والحمير والشيران. إضافة إلى تعود النحاس واستخدامه في صناعة بعض الأدوات والأسلحة. وقد شجع على استخدام النحاس عدم وجود الأحجار في جنوب العراق التي يغطيها السموم تغطية كاملة. وإذا كان لا بد من استيراد المادة الخام لصناعة الأسلحة والأدوات فمن الأفضل استيراد النحاس بدلاً من الحجر، وبعضاً بعدما تم اكتشاف البرونز. ومادة النحاس والقصدير أخف وزناً من الحجر، وهو ما يسهل حملها ونقلها. وهي لا تفقد شيئاً من مادتها خلال عملية التصنيع كما هي الحال بالنسبة للحجر الذي يهدد منه الكثير خلال عمليات التشطيب أو الصقل. ويرى الأركيولوجيون أن السبب في عدم العثور على مواد معدنية في المواضع الأقدم لا يعود إلى عدم معرفة المعدن آنذاك وإنما لأن الأدوات المعدنية، كما ذكرنا، لا تزول إذا تلفت بل يعاد صيدها وصبيها مرة أخرى. وكانت عُمان جنوبياً من أهم مصادر استيراد النحاس على حين يستورد القدير من الأناضول شمالاً.

وشهدت مرحلة جمدة نصر بدايات الكتابة التصويرية التي سبقت الكتابة المسمارية، ولذلك تسمى هذه الفترة Proto-Literate، أي فترة ما قبل الكتابة. وبدأت الكتابة على شكل رموز وصور لأشياء مادية محسوسة قبل أن تحول الكتابة المسمارية إلى رموز صوتية تستطيع التعبير عن أفكار مجردة. وتتم الكتابة

٨٧
١٩٥٥
١٩٥٦
بالنقش بالرقم، وهو أداة حادة الطرف معدة من قصب البوص على ألواح من الطين ثم تترك هذه الألواح لتجف في الشمس. وحيث إن الطين غير مناسب لتشكيل الخطوط المنحتية جاءت الكتابة على هيئة خطوط مستقيمة تشبه المسامير في شكلها، إذ إن الجهة من الحرف التي يهوي من عندها الكاتب بالرقم ضاغطًا على اللوح تأتي عريضة ومثلثة مثل طبعة المسامير، أما الجهة الأخرى التي ينتهي عندها فملبسة مثل رأس المسامير. وقد أسس السومريون مدارس لتدريب النساخ على الكتابة. ولاحظ أن الكتابة في بداياتها لم تستخدم لأغراض دينية ولا أدبية ولا تاريخية وإنما فقط لأغراض عملية فحسب، ومجرد وسيلة للذكير بما يملكه المعبد من أراض زراعية، وما في مخازنه من غلال، وكيفية تسلمهها من المزارعين ثم توزيعهما على المستحقيين، وغير ذلك من التعاملات التي من الواضح أنها وصلت في ذلك الحين إلى حجم وكثافة صار من الصعب على من يراها أن تكون ذكيرا. تبدأ الكتابة في اكتساب أهمية خاصة بالنسبة للمعبد الذي جاء إليها لحفظ سجلاته وضبط تعاملاته التجارية ونشاطاتها الاقتصادية وضبط مدخلاته ومخرجاته بعد أن تحول إلى مركز لتجميع الإنتاج الزراعي من الفلاحين ثم إعادة توزيعه على مختلف الدينيين الذين يمارسون حرفاً خارج نطاق الإنتاج الغذائي. وبدأت ظهور الكتابة مؤشرًا لنهاية ما يسمى ما قبل التاريخ (pre-history) وتبدأ التقويم والوثائق المكتوبة في الظهور بدورهم وتلغي ضوءًا كم تشافًا على الأحداث والمنجزات البشرية. وتتغلغل الكتابة في مختلف أوجه الحياة اليومية وتؤدي إلى تطور المؤسسات والتعاليم البيروقراطية، وبذلك يدخل الإنسان عصر التاريخ. وعثر المنقبون على مناث الألواح الطينية المرقمة المحفوظة في أرشيفات المعابد والقصور، تحتوي على الكثير من السجلات التجارية والاقتصادية والصناعي وال.reddit والمؤلفات والنصوص الأدبية والأدبية والمعلومات عن حياة السومريين وتاريخهم، كما تشير هذه الألواح إلى أن السومريين ومن بعدهم الأكاديون والبابليون كانوا لديهم آراء وممارسات عملية في مجالات التطب ، وكذلك الرياضة لاجئتهما لها في أعمال البناء وتقسيم الأراضي الزراعية، والملك لمعرفة المواسم الزراعية والمناسبات الدينية.
السودريون والأكاديون

مهدت ثقافة العبيد ومن بعدها أوروك وجمدت نصر لقيام المدن والحضارة السودية جنوب العراق التي تتحول إلى مركز الإشعاع الحضاري في بلاد الرافدين. وفي المرحلة جمدت نصر وصل عدد سكان أوروك (ورقا)، التي قلنا إنها تأسست في مرحلة العبيد، إلى 10,000 نسمة، ثم تضاعف إلى 50,000 في المراحل اللاحقة. وكذلك الحال بالنسبة لمدينة أور التي تحولت هي ومدينة أيدو إلى مركز حضري تحت نصر السكان. وتعتبر مرحلة أوروك، وهي تدين للإله ، مستهل الحضارة السودية، ومعها تبدأ القوى المنتشرة على مصادر المياه وضفاف الأنهار تتعقد ويتقارب بعضها من بعض، مما يدل على بدء ظهور المدن والكيانات الحضرية الكبيرة بأسوارها الحصينة ومعابدها. الضخمة ذات التصميم والزخارف الباهتة التي يحتاج تشييدها إلى خبرات عميقية في فنون المعمارية والهندسة، وإلى آلف العمال والحرفيين والأعمال من مختلف المهن والتخصصات الدقيقة الذين يطلب تعزيزهم وإدارتهم إدارة مركزية وجهازياً بيروقراطياً مكثماً. كما زادت المناطق المأهولة إلى ما يقرب من ستة وهو ما يدل على نشاط البدوية إلى جنوب العراق واستقرار البدو والصيادين الرحل والتنجس الشموعي.

قبل أن تنتهي مرحلة أوروك وجمدت نصر كانت بلاد سومر تضم ما لا يقل عن 12 دولة - مدينة بيضط بكل منها عدد من القرى والمناطق البيئية التي تمدها بالغذاء والمنتجات الزراعية. وكانت كلها تتكلم لغة واحدة هي اللغة السودية، وتدين للآلهة واحدة، ويجمعها إرث ثقافي واحد. يتراوح سكان كل من هذه المدن وملحقاتها ما بين عشرين إلى خمس وعشرين ألف نسمة تتنازع على السلطة فيما بينها، وتطمع كل منها إلى أن تبسط سيطرتها على جاراتها وتستولى على كامل البلاد، ومن تلك المدن تكونت فيما بعد دولات صغيرة أهمها المدن الثلاث الكبيرة وهي كيش وأوروك وأور. هذه بداية ما يسمى Early Dynastic Periods المرحلة الأولى من مراحل السلالات الحاكمة المبكرة.
التي تبدأ في حدود الألفية الثالثة قبل الميلاد، وتتقاسم إلى ثلاث مراحل متتالية، تنويع السلطة في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث واحدة من المدن الثلاث.

ويحدد المتبقيون إطالة مراحل السلالات الحاكمة مظاهر معمارية من أهمها استخدام الطوب محدد السطح بدلًا من الطوب المستوى السطح الذي كان مستخدماً قبل ذلك، وتبدأ مع بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد. في هذه المرحلة بدأت السلطة الدينية والعسكرية تتفصل عن السلطة الدينية وتطغى عليها، كما يؤكد ذلك البدء في بناء القصور الضخمة التي صارت تنافس المعابد في زخرفها وأبهتها. وكانت كل مدينة، من الناحية النظرية، ملكاً لواحد من الآلهة الذي ألب إله ملكيتها منذ بداء الخليفة، لكن الواقع أن معظم الأرض لا يملكها المعبد بل المزارعون والتجار وغيرهم من الأهلاء، ولهذا يشكلون مجلس أعيان وجمعية عمومية تشمل جميع الرجال الأحرار البالغين من أهل المدينة لتسير شؤون المدينة وحكمها. ولم يكن أمير المدينة أو الملك سوى واحد منهم، وهم الذين يمنحون هذا المنصب حسب كفاءته وحسن تدبيره في المسائل التجارية والاقتصادية وبعد نظره أو شجاعته وحنكته في الأمور الحربية وينتبهون في أوقات الأزمات، ويتبهى دوره ويتمنى من منصبه حال انتهاء الأزمة. وهذا ما تعكسه الميثولوجيا السمرة التي تصور مجتمع الأهلة على هيئة مجلس من الأنداد والأفراد يقومون واحد منهم ينتخب منهم بينهم. ولهذا يكون من الآلة المحلية وكثرة مشاريع البناء الضخمة واستصلاح الأراضي الزراعية، وتعقد مشاكلها المتعلقة بالري والصرف، واستشرفت النزاعات بين مواطنيها على ملكية الأرض، وصارت في حالة حرب شبه مستمرة مع جاراتها من المدن الأخرى، واتخذت التدابير العسكرية والدفاعية أهمية خاصة، تعزز دور الأمير وصار لا ينتهي من أزمة حتى تأتي أخرى في ذيلها. وقد أعطى ذلك دوره صفة الاستمرارية وصار يقوي مركزه ولا يعبر للحفاظاً للمجالس الشريفة؛ لأن جمع أعضائها للتشارف معهم أمر ليس سهلاً، وإن اجتمعوا فقلما يتفقون على رأي موحد، وربما طال النقاش بينهم وتفاقمت الأزمة قبل أن يجدوا لها حلًا مرضياً يقبله الجميع.

لذلك أضطر الأمير في الحالات التي تتطلب قرارًا سريعًا أن يتخذ القرار بنفسه.
وشينأ فشياً مبار، وصارت تطور مدة ولايته إلى أن اتخذ صفة
الديمومة وثبتت، وجاءت مرحلة مبار المنصب حكراً على شخص معين يورثه
لأبنائه بعد مماته. وعلى هذه الشاكلة تأسست الأسر الحاكمة بجيوسها النظامية
وطموحاتها التوسعة، والإدعاء بأنها تسلمت السلطة بتفويض من الآلهة. 

تتحدث ملهمة جلجامش، الأساطير السومرية والبابلية عن الطوفان،
وتقول إنه قبل الطوفان حكم البلاد عشيرة ملوك امتد حكمهم لفترة تقارب
مليون ونصف المليون سنة. وفي هذه المرحلة الميثولوجية ألهمت الآلهة الإنسان
طرق الزراعة والكتابة وجميع أسباب الحضارة. وتقول قائمة الملوك السومريين
، التي وجدت مرسومة على ألواح من الطين، أن المرحلة
الأولى من مراحل السلالات الحاكمة أعقبت الطوفان، وأنه لما غاض الماء نزل
من السماء التفويض الألهي بالملك إلى أول أفراد السلالة الحاكمة في مدينة
كيش التي هي أهم وأكبر دولة مدينة على الوجود آنذاك وتقع إلى الجنوب
من بغداد. وكان ذلك الحاكم قد بنى معبداً ضخماً للآلهة في مدينة نيبور
المقدسة
، لينسد في أن يجعل من المدينة مركزاً دينياً مهماً، ويمنح كهيتها
ثقاً ملحوظاً في المباركة والتأييد لمن يرون أن لا يحتل المركز الأول بين أرما
المدن السومرية ويطلقون عليه لقب «حاكم الجهات الأربع»)
. ومنذ ذلك
الوقت أصبح لقب «ملك كيش» لا يعني ملك مدينة كيش تحديداً بقدر ما يعني
أمير أمراء سومر. ولم جاء جلجامش، أمير أوروك، جدد بناء المعبد في نيبور،
والتزعم السيادة من السلالة الحاكمة في كيش. وظلت السلطة في يد سلالة
جلجامش حتى انتزاعها منهم حاكم أور. وبعد ذلك جاء أقوياء غرباء من نواحي
خوزستان يقال لهم العيلاميون وقضوا على حكم هذه السلالات
الثلاث، وأفقل نجم السومريين لفترة من الزمن، لكنهم استطاعوا لاحقاً أن
يستردوا شيئاً من عزهم وسلطتهم عام 2500 قبل الميلاد. ولم يلبث الزعم
الأكادي سرجون، الذي يعود إلى أصول سامية، أن انتزع نفسه الملك
عام 2350 قبل الميلاد من حاكم كيش، وأسس شمالي منطقة سومر دولة
الأكاديين، وهم قوم أصولهم سامية تغلبوا على أهل البلاد من السومريين. 

Sumerian King List
وسرجون هو أول حاكم يوحد بلاد الرافدين تحت سلطة مركزية قوية، ويضع
كل المدن السومرية لسلطته المباشرة، واستبدل بأمرائها المحليين حكامًا يعينون من
قبل ومعظمهم من أقاربه، وأسس أول امبراطورية في العالم عاصمتها أكاد,
والتي لم يبق بعد على مكانها وإن كان غير متصل أنها لم تبعد كثيرًا.
عن بغداد. وامتدّ نفوذ الأكاديين من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط
ومن الأناضول شمالًا حتى أثيوبيا جنوبًا، وسيطروا على طرق التبادلات التجارية
العالمية آنذاك، وامتدت علاقاتهم التجارية إلى وادي السند وبلاد الهند.
ومنذ عهد سرجون بدأت اللغات السامية، الأكادية أولاً، ثم الفينيقية والإشورية، تحل
محل اللغة السومرية التي اقتصر استخدامها منذ تلك الفترة على كتابة النصوص
الدينية والأدبية حتى آلت بعد عدة قرون إلى الانقراض. ومنذ اعتلاء سرجون
العرش صارت الألواح تكتب باللغتين، السومرية والأكادية. وفي أحد النقوش
يفتحار سرجون أن ما لا يقل عن 5400 شخص يتناولون الخبز يوميًا على
مائدته، وربما يشير ذلك إلى عسكره. ويوعد سرجون نجاح سرجون إلى حزمه
وعشاجته ومهارته في إدارة دفة الملك، وجوهته للكتابة في إنشاء توجيهاته
وتعليماته، وإنشائه لأول جيش نظامي في العالم. كما أنه جعل من عاصمته
أكاد مركزًا تجارياً رئيسيًا، وهو ما ساعد عليه جهاد المكسوس والضرائب.
وبعد
قرن ونصف من تأسيسها وتوالي خمسة ملاك على عرشها سقطت دولة
الأكاديين في عهد أحد أحفاد سرجون نارام-سين.

ويمتاز سرجون نارام-سين
لهجوم من الجبال الشرقية والشمال شتى قبائل الجويتين
والشام والشام زينتمي في الأغنياء الحثة قبل الميلاد بقيادة مدينة
أور من استرداد شيء من مجدهم الغابر، وتأسس أسرة أور الثالثة الذين اشتهر
الذي سبق حمورابي في سن قواتنه مدينة يختصر
هبها الجماع، وتميّزه الضعيف، وتنصّف المظالم. وبعد مضي قرن من الزمان
اندحر السومريون حوالي سنة 2000 قبل الميلاد على يد أقوام من البدو الساميين
يدعون العموريين جاءوا من الصحراء غرب الفرات، وأنهكوا البلاد
بغاراتهم، وعاصمتها في مدة 200 سنة قبل أن ينجحوا في تأسيس دولة لهم في
الشمال هي الدولة الآشورية وأخرى في الجنوب هي البابلية. ومن البابليين حمورابي المشهور الذي حكم من عام 1792 حتى عام 1750 قبل الميلاد، واستطاع أن يضع أول قوانين عادلة وتشريع مدني مكتوب، وأن يوجد تحت سلطته بلاد سومر التي أصبحت تسمى بلاد بابل.

عوامل ظهور المدن: التفسيرات النظرية

لاحظ المثقفون الآثريون منذ وقت مبكر أن المدنيات القديمة كلها قامت على ضغف الأنهار من بلاد الرافدين إلى حوض النيل إلى ضفاف السند وشمال الصين وأمريكا الوسطى وشمال البرو. وكان أول من لفت الانتباه لهذه الظاهرة وحاول أن يقدم لها تفسيراً علمياً هو غوردن تشابلد بناء على أبحاثه الأنثروبولوجية في مصر والعراق. يرى تشابلد أن التكنولوجيا من أهم العوامل وأكبرها تأثيراً في دفع عجلة التغير الاجتماعي والثقافي، لذا فقد نتج عن اكتشاف تفانيات التعدين إعادة هيكلة الاقتصاد، ومن ثم خلق الظروف الملائمة لقيام المدنية. وقد حدث تشابلد عددًا من الخصائص المميزة التي يستطيع المثقفون الآثريون أن يستدلون بها في تقييمهم لأي موقع على ما إذا كان ذلك الموقع مكان مدينة قديمة مقدمة. هذه الخصائص متعارضة ومتشابكة تقوم بينها علاقات تأثير وتأثير متبادلة، بعضها يتعلق بالتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، وبعضها يتعلق بالآثار المادية الشاملة.

ولقد فذلت نظرية تشابلد الكثير من قوتها التفسيرية، ولكنها لا تزال تحفظ بأهميتها التاريخية؛ لأنها من الإسهامات الرائدة في مجالها.

وظهرت نظريات لتفسير نشوء الدولة مثل النظرية الإيكولوجية التي قال بها جوليان ستيفارد. يقول ستيفارد إن الحضارات التي ظهرت وتطورت في أحيائ والأنهار الحاشية مناطق جافة مثل الفرات والنيل تتشابه في مراحل مسيرتها التطورية، فهي جميعها تعتمد على تكنولوجيا الري، وبداً على شكل قرى صغيرة وتنطور إلى أن تصل إلى أعلى مراحل مستويات التكامل الثقافي مما يقود إلى قيام دولة المدينة والمعبد الذي تقام فيه الطقوس والشعائر الدينية.
كلايمر أ. ويتوفغول التي تفسر نشوء الدولة نظرية كارل ويتوفغول

النظرية الهيدرولوجيكية. وهي النظرية التي تقول بأن الحضارات القديمة قامت
أساسا بوصفها ضرورة لتشييد مشاريع مائية 

جلب مياه الري

عبر قنوات ضخمة من الأنهار إلى أحواضها ووديانها الجافة. وهو الذي

استحدث مصطلح الاستبداد الشرقي

عندما سماه نظرة الإنتاج الآسيوي Karl Marx من مقولته كارل ماركس

يرى ويتوفغول أن تشييد المشاريع المائية الضخمة بما تتطلب من تمويل وأعداد ضخمة من العمال والحرفيين وأصحاب المهن في مختلف

الخصائص والتسيיך فيما بينهم يتطلب حكما استبداديا قويا قادرا على فرض

النظام والانضباط على الجميع، وعلى فرض الضرائب والمكوس والإثباتات

ومصادر التمويل اللازمة. 

وويولي ويتوفغول أهمية خاصة لإدارة الموارد المائية في الحضارات النهارية،

وما يتطلب ذلك من إدارة وتنسيق لا يختلف الماء عن المقومات الأخرى

الضرورية للزراعة مثل المناخ ولاقتاريس وخصوبة التربة. إلا أن الماء عامل

هم، خصوصا في أحواض الأنهار ذات المناخ الجاف؛ لأنه مورد طبيعي يمكن

التحكم به وزيادة حجمه وتديره وتصرفه. وفي هذه المناطق الجافة من النهر

المجاور وتحويلها إلى مناطق زراعية خصبة يستلزم القيام بمشاريع ري وصرف

ضخمة تديرها وتقوم على تنفيذ سلطة مركزية. وكلما كان النهر عظيمًا كان

الناخ الغذائي الذي يمكن الحصول عليه من حوضه أعظم، لكن ذلك في

الوقت نفسه يتطلب جهدا أكبر من التنسيق والتنظيم والإدارة والصيانة والحماية،

وما يترتب على ذلك من شق الزرع والقنوات وبناء السدود والخزانات والتحكم

بالفيضانات وتغيير مسار النهر وروافده. ويطلق هذا تجهيز الأعداد الضخمة

من العمال وتسخيرهم وتنظيمهم وإدارتهم وإعاشتهم وسكنهم، ولا يمكن أن يتم

ذلك إلا إذا تركزت السلطة في يد عدد محدود من الرؤساء والمديرين الذين

يتلقون توجيهاتهم من حاكم واحد مستبد.
ويصف ويتوفغيل مجموع النشاطات الضرورية في مجتمع يعتمد على مشروع الري العملاقة، والتي تشمل التخطيط والتشييد وجدولة أوقات الري وصيانة القنوات والسدود وحمايتها والدفاع عنها. ومن الممكن أن يتم ذلك من قبل مجموعات صغيرة مستقلة وطريقة غير مفيدة. لكن هذه الطريقة لن تكون طريق ناجحة وفعالية الفائدة. ومن الأفضل والأفVENT أن يتم ذلك على نطاق موسع وتتحك وإشراف إدارية سلطة مركزية قوية، ومن يتحكم في مصادر الماء يملك سلطة مطلقة على الفلاحين، وإذا كان مصدر من مصادر السلطة أقوى وأشمل من أي مصدر آخر فإن ذلك المصدر الأقوى سوف يتحدد على جميع مصادر السلطة الأخرى، ويستكملها كاملا، وينتج عن ذلك سلطة مركزية مستقلة يطلق عليها ويتوفغيل اسم "الاستبداد الشرقي"؛ لأن هذا النوع من السلطة، في نظره، نشأ في الصين وبلاد الشرق الأوسط. ويعتقد ويتوفغيل مقاومة بين هذا النوع من السلطة وتلك التي نشأت في أوروبا بمنحها العتاد المطرز الذي سمح بقياس زراعة تعتد على الأمطار التي لا يستطيع أحد أن يتحكم فيها. وقد حال دون الاستبداد بالسلطة التي كانت سلطة متوازنة وموزعة بين الكنيسة والنقابات والأملاك. أما في بلاد الرافدين مثلًا، حيث كان التحكم في مصادر الماء أمرًا جديًا، فإن ملحة السلطة على الموارد المائية ينسد تبعًا لذلك على كل شيء من التجارة إلى الصناعة إلى حقوق الملكية. كانت السلطة في البداية بيد رجال المعبد، ولكنها تحوّلت بالاتخاذ إلى سلطة مدنية يسندها الجيش ويدعمها رجال الدين. وتعمل هذه السلطة على الاستحواذ والسيطرة على مصادر الثروة وتقييد دور الملكية الخاصة وكل مراكز السلطة والنفوذ التي لا تقع تحت يد الدولة، وتبدأ هذه المجتمعات ببدايات قوية وخلافة في مرحلتها الأولى، لكنها سرعان ما تراجع وتحول إلى كيانات جامدة ومهترئة، ثم تنهار لبداً دورة جديدة تحت سلطة جديدة.

وقد وجه إلى نظرية ويتوفغيل عدد من الانتقادات، لا سيما تأكيدا على أن أهم دور كانت تقوم به النخبة الحاكمة في المجتمعات الشرقية القديمة هو إدارة المشاريع المالية والإشراف عليها. يقول شوثيرغ إن مهام النخبة الحاكمة
تشمل أموراً أخرى لا تقل أهمية: منها تجهيز الجيوش وتنظيم العلاقات التجارية والنشاطات المهنية وتشجيع الحرف والصناعات والتعدين وتأمين استيراد المواد الخام والمصنعة اللازمة لازدهار المدينة والدولة والإشراف على جميع المواد الغذائية وتوزيعها(51). وتوجه مآخذ أخرى إلى نظرية ويتوجها ل phường منها أن الشواهد الأثرية والتاريخية تفيد أن المشاريع المائية الضخمة لم تظهر إلا بعد ظهور سلطة الدولة، ويعني ذلك أنها كانت نتيجة ليست السبب لظهور الدولة. وهذا ماشير إليه الدراسات الميدانية المعاصرة من وجود مشاريع ري تعاونية صغيرة تُنفذ على المستوى المحلي في العراق بدون تدخل من السلطة المركزية ويحصل منها المزارعون على عائد لا يُب**** به(52).

Marvin Harris ومارفين هاريس Charles L. Redman

ورد تشارلز ريدمان

على هذه الاعتقادات، بالقول إن مثل هذه الانتقادات لا تنفي أن إقامة المشاريع الضخمة سوف يترتب عليه عائد أضخم، أو أن المشاريع المائية والسلطة المركزية جميعاً نشأت نشأة متواضعة ومتمزقة دون الضرورة إلى أن يسبق إحدهما الآخر، لكنهما تدريجيًا ويفعل التأثير المتبادل بينهما والتغذية الاسترجاعية عمل كل منهما على تطور الآخر، فالسلطة صارت تتحو نحو المركزية التي أعطتها القدرة لأن تجد كمًا أكبر من الموارد، وعدًًا أكثر من الأيدي العملة التي مكتشها من إقامة مشاريع الري الضخمة وهو ما قوي من سلطتها، وهكذا. وعلى هذا النحو لم يعد وجود أنظمة الري في حد ذاته هو السبب في قيام سلطة مركزية مستبِدة، وإنما السبب الحقيقي هو الحاجة إلى من يتولى إدارة هذه الأنظمة والإشراف عليها وصيانةها وحمايتها، وهذا ما يحاول ويتوفى تسليطه وليس نشوء سلطة الدولة، وكلما قويت قبضة هذه السلطة التي تشرف على أنظمة الري طمعت في المزيد، وسبعت سلطتها على الشؤون العامة الأخرى بما في ذلك الاقتصاد والتجارة والدين وأصبح استبدالها أمرًا صعبًا. ونظرًا لما تحقق هذه السلطة القوية من أمن واستقرار ورخاء فقلما تجد من يعارضها(53).
ومن الذين اشتروا لتفعيل النظريات الكلاسيكية عن نشوء الدولة وتقديم
بدائل نظرية أكثر شمولية روبرت آدمز ، والذي
يمكن أن نسمي نظريته بالنظرية الديموغرافية . لا يتفق آدمز مع غوردن تشابلد
الذي يرى أن تراكم الإجازات التكنولوجية هو المسؤول عن قيام الدولة(54) ، كما
يختلف مع ستيوارد الذي يعزز ذلك إلى عمليات التكييف البيضي(55) ، ومع
ويلفوجيل الذي يؤكد على دور مشاريع الري الضخمة والحاجة إلى إدارتها(56) .
وينظر آدمز - خلافا لما يقوله ويلفوجيل - أن تشكيل قنوات الري وصيانتها لم
يكون تحت إشراف موظفين معينين من قبل الدولة ، بل ظل إلى حد كبير تحت
إشراف رجال المعبد وليس هناك ما يشير إلى أن ظهور السلطة المدنية في جنوب
العراق مرتبطة بالمشاريع المائية(57) . وفي مكان آخر كتب آدمز يقول :
لا تشكل المدن الرئيسة ... المواقع التي تنتشر منها شبكات الري
المائية التي تصرف على طولها القرى التابعة لها . . . يمكن الوفاء
بمتطلبات المعيشة للسكان الذين ما زال عددهم قليلاً نسبياً عن طريق
الري من الفيضانات بواسطة سدود مؤقتة وشنايد صغيرة لتوجيه
الماء ، مدعمة بنظام قنوات صغيرة ، ربما حلت محلها مع مرور الوقت
في مراحل لاحقة . هذه الأنظمة من القنوات صارت تكبير وتتوسع
بالتراكم التدرديجي ولكن طولها لم يعد إطلاقاً بضعة كيلومترات من
مجري النهر إلى الداخل . وقد اتضح أخيراً أن هذا النمط من الري
في بيئة البلاد الريفي وظروفها يمكن أن تقوم به الجماعات المحلية دون
حاجة إلى تدخل الدولة . أن المؤكد أن وسائل الضبط الصرامة
للمتحكم في مصادر الماء لم تكن ضرورية في مثل أنظمة بدائية كهذه .
لذلك فإنه من الصعب القبول بأي وجه أن نشوء المدن جاء نتيجة
اكتشاف التحكم بمصادر الماء المتصرف للقرى المحيطة ، بل إنه من
الأصعب أن نتصور أن نمو مؤسساتها السياسية جاء نتيجة الحاجة إلى
مؤسسة بروقراطية مهمتها إدارة قنوات الري(58) .
ويتعرض روبرت آدمز بأن الزراعة من الأسهام المهمة والضرورية لظهور المدينة وقيام الدولة، لكنه لا يرى ذلك سبيلاً كافياً في حد ذاته، بدليل أن قيام الدولة لم يحدث إلا بعد آلاف السنين من اكتشاف الزراعة، كما أن هناك مناطق في العالم عرفت الزراعة ومع ذلك لم تقم فيها دول، ويرى آدمز أن المسؤول الأول عن ظهور المدن وقيام الدولة في بلاد الرافدين هو التحولات الجذرية التي طرأت على التنظيم الاجتماعي. "يعود السبب الأساسي إلى تحولات طرأت على المؤسسات الاجتماعية التي أدت هي إلى تغييرات في التكنولوجيا، وفي نحل المعاش، وفي المناخ الأخرى من مجال الثقافة الأوسع مثل الدين، وليس النتائج النموية الملحوق في urban revolution. (59) وجاءت الثورة المدينة حجم السكان، وتعقيد التركيب الاجتماعي، مع ما يصاحب ذلك بالضرورة من ظهور مؤسسات دينية وسياسية لهما القدرة على تنظيم القوى الترابية التي تتألف منها مجتمع المدنية وتنسقي نشاطاتها. ويساءل آدمز عن مدى صحة الفرضية القائلة: إن اكتشاف الزراعة وما أدى إليه ذلك من إنتاج الفائض الغذائي هو المسؤول الأول عن قيام الدولة، ويقول إن المزارعين لن ينتجوا هذا الفائض، الذي هو من ضرورات قيام المدنية واستمرار وجودها، ما لم تكن هناك أصلاً قوة قهرية، مثلثة في مؤسسات المدينة الدينية والسياسية، تحميهم على ذلك وتنزعج منهم. (60) وكانت وسائل إنتاج الغذاء في بلاد الرافدين ما بين الألفية الخامسة والألفية الرابعة قبل الميلاد قد أصبحت وسائل معقدة تشمل على كثير من النشاطات المتنوعة التي أسهمت كلها بإمداد المدنية بالغذاء، وشارك فيها الرعاة وصيباد الأسماك إضافة إلى المزارعين مما تنتجه حقولهم ويساتينهم من حبوب وخضروات وأشجار الفاكهة. وتغلب الشواهد الأثرية والكتابات المسمارية على أهمية الأسماك المحضيفة بوصفها مصدرًا غذائيًا منذ مرحلة أوروك ومجددة نصر. (61). كل واحد من هذه النشاطات مستقل عن الآخر، وله وترته الإنتاجية وإيقاعه السنوي المختلف، وتكوينه الخاص. (62). ويتطلب تبادل هذه المنتجات وتوزيعها بين المنتجين المستهلكين بطريقة اقتصادية فعالة وناجحة تدخل وسطاء يعملون من خلال مؤسسات متطرفة لا يمكن أن تنشأ إلا في بيئة حضرية، على خلاف طرق المقايدة البدائية ووسائل الاكتفاء الذاتي التي كانت
تسود في القرى الصغيرة المعزولة مع بدايات الزراعة الأولى. وكل واحد من المنتجات الغذائية السالفة الذكر معرض لكورارت طبيعية مدمرة، مثل الفيضانات والجفاف وغزو الحشرات الضارة وما إلى ذلك، وبالمقابل، ولا سيما في ظل المناخ الجاف لبلاد الرافدين، قابل للحظر والتخزين والتكديس لمدة طويلة. هذا مما يدفع إلى محاولة إنتاج أكبر كم من الفائض لأي من هذه الموارد الغذائية كلما كانت الظروف مواتية لإنتاجه، ومن ثم الاحتفاظ بهذا الفائض لدرء المجاعات ومواجهة احتمالات الكوارث التي قد تتعذر لها مصادر الغذاء الأخرى. هنا تبرز الحاجة لقيام سلطة مركزية لها مؤسساتها القادرة على إجبار الرعاة والمزارعين وصيد الأسماك على إنتاج الفائض، ومن ثم القيام بجمع هذا الفائض والاحتفاظ به وتوسيعه عند الحاجة، وقد تمثلت هذه السلطة بداية برجال العبد وموظفيه (63).

ويضيف آدمز أنه حينما نزل المزارعون الأوائل من سفوح الجبال الشمالية إلى أحواض دجلة والفرات وشط العرب في الجنوب، وتحولوا من الزراعة اليدوية إلى الزراعة التي تعتمد على الري، كان لذلك أثره في بروز الفوارق الاقتصادية والطبقية الاجتماعية التي تعد من صميم الظاهرة الحضرية ونشوء المدن. لم يكن هناك شح في الأراضي الزراعية لكن المشكلة تكمن في توافر الماء اللازم لري الأرض. لذلك زادت حدة التنافس على الأراضي الحضرية للنهر التي يمكن جلب الماء لها بسهولة، خصوصاً في أزمة الجفاف وانخفاض مستوى الفيضانات، مما زاد من قيمة تلك الأراضي وثروة من يمتلكونها مقارنة بتلك البعيدة عن مصدر مياه الري (64). يضاف إلى ذلك أنه مع ازدهار الحرف والصناعات التي صاحبت نشوء المدن، زيادة حجم التبادلات التجارية، وحركات الاستيراد والتصدير بين المدن والممالك تتعاظم دور الوسطاء والتجار وتزداد ثروتهم ومكانتهم، ويمرس من حدة الفوارق الطبقية بحيث حلت الانتهاءات والولادات الطبقية والمهنية محل الانتهاءات والولايات الفارقة. وفي هذه المرحلة تبرز الحاجة لوجود قوة بوليسية لحفظ الأمن وحماية التجارة وممتلكاتهم، واحتفاظ على المصالح الطبقية والوضع القائم، إضافة إلى الحاجة
الهوايش والمراجع


(40) Frankfort (1956), p. 50.


(51) Sjoberg (1960), p. 117.


(65) Adams (1968), pp. 204-5.

* * *